

ذاهب مع الريح

أربعة أشهر قضيناها في ربوع العالم الجديد . . .
أن أن نفكر في الرحيل . . .
مضينا نلتمس وسيلة الانتقال إلى أوربة فعلمنا أن الأماكن في البواخر
والطائرات محجوزة كلها إلى ثلاثة أشهر . . .
لا مناص لنا إذن من البقاء ثلاثة أشهر في بلاد العم سام . . . ثلاثة
أشهر تقضيها لا مهمة لنا ولا عمل إلا محض الانتظار !
ذلك حكم قضت به علينا شركات البواخر والطوائر ، ولكن أليس لهذا
الحكم من استئناف ؟
علمتنا المدرسة ونحن نتلقى علم الهندسة أن أقرب بعد بين نقطتين هو الخط
المستقيم وها نحن أولاء نريد تطبيق تلك البديهية الهندسية فيما نريد من
الانتقال ، فنتخذ الطريق المستقيم الرسمي في طلب التذاكر ، فإذا أقرب مسافة
بيننا وبين ما نريد هو ثلاثة أشهر طوال عراض !
وهالنا مأزقنا الحرج ، فخرجنا على تلك البديهية الهندسية نطلب ملتويات
الطرق ، لعلها أقرب بعداً ، وأيسر جهداً . . .
دخلنا سوق الشفاعات والوساطات ، فخرجنا بصفقة الرابع ، وتوارت عن
أذهاننا تلك البديهية الهندسية ، كأنما تلوذ بالفرار من خجل وخزي . . .
إننا على وشك السفر خلال أيام معدودات ، فلنكن على أهبة . حتى
يبلغنا الموعد القريب . . .
وبعد أيام تلقينا نبأ من الشفيح الأعظم بأن الطائرة ستقلنا بعد
أيام ثلاثة . . . فأضينا هذه الأيام نطوف في نيويورك طوفات عابرة ، هي
تحيات وداع . . . وداع للمطاعم ، للمنتزهات ، للملاهي ، للطبيب : نترود
منه بتلك الابتسامة الحافظة التي كانت كل ما في جعبته حين قدمنا عليه من

تحية واحتفاء ، وهى اليوم كل ما فى جعبته من نصيح وإرشاد . . . وأخيراً وداع لذلك الصديق الكريم الشارع الخامس الذى صحبنا أربعة أشهر لم نلق منه إلا صديقاً رجباً ، ومعيناً عذياً يفيض بالمباهج والمسرات ! فى صبح يوم السفر ، أطلت من نافذة حجرى ، أطلع إلى منظر ألقته حتى ملته : أبنية سوامق ، وطريق صادر وارد ، ومتنزه فى أقصاه صغير . . . وقفت أرنو إلى ذلك المنظر المألوف لى ، فاذا به فى هذه اللحظة ينزع عنه تفاهته وابتذاله . . .

إنه ل يبدو لى كأنما يتجلى لناظرى أول مرة . . . مفاتن جديدة ، تتوضح لى ، لم أعهد لها من قبل . . . لكان الشارع كان يستر عني جوانب منه ، ضن بها على . . . ولكأنه كان يدخرها لهذا اليوم ، بل لهذه اللحظات ، حتى أفارقه بشوق جديد ، وشغف مزيد !

أربعة أشهر ترادفت ، وعينى تتردد فى هذا المنظر ، دون أن آبه له ، واليوم وأنا على وشك فراقه أراى متشبثاً به ، رانياً إليه ، أتملى محاسنه ومفاته ، كأنى أريد أن يحتويه صدرى ، لا يفلت منه شئ !

يا لقلب الانسان ! . . . إنه يظل غافلاً عن قيمة الشئ ، لا يفتن إليها إلا حين يتركها أو تتركه . . . إنه لا يكتشف الكنز إلا حين يضيعه ! أنت إذا ملكت شيئاً أهملكه ، فكأنك تقول : فيم الاهتمام والتعجل ، وهو طوع يمينى ، وبين يدى من وقى فسحة للتمتع به . . . فتنتوى الأيام بعد الأيام ، وأنت عن شيئك غافل ، حتى إذا أحسست أنك موشك أن تفقده ، تواتبت قواك من تلقاء نفسها تتشبث به ، وقد احتد شغفها ، واشتد كلفها ، وتستبين لعينيك مزايا يدهشك أنك لم تحس الانتفاع بها قبل . . .

وأقوى ما تكون هذه المزايا توضحاً لناظرك ، حين لا يستطيع الوقت أن يسعفك بفترة استمتاع وانتفاع ، فلا تملك إلا أن تدع ذلك الشئ ، وقد أتبعته من قرارة نفسك حشرات تلو حشرات !

ظلت هذه الخواطر تعتلج فى رأسى ، فكبر على نفسى أن يكون بها كل هذا التشوق والتعلق بذلك المنظر ، فرحت أسائل القلب :

ترى ماذا يكون منى إن تلقيت الآن نبأ بتأجيل موعد السفر أربعة أشهر ؟

ترى هل أتخذ في مسلكي نحو هذا النظر شأنًا غير ما كان من شأنى معه
في أربعة الأشهر الماضية ؟

أم يتكرر ما كان منى قبل ، فأغفل عنه ، ولا أكثرث له ، حتى تحين
ساعة الوداع ؟

... ركبنا السيارة ، قاصدين مطار لاجوارديا ...
ما أشبه الليلة بالبارحة !

الطريق هو الطريق ، والمشاهد هي المشاهد ، ولكن شتان بين شعورين :
شعور القدوم ، وشعور الرحيل !

دخلنا المطار ، وانتظرنا في البهو الدائر يزخر بالناس بين رائج وغاد ،
وبين جالس إلى أمتعته ، ومقبل على الميزان يستوفى إجراءاته ...

ورحت أنطلع إلى تلك الرسوم العظيمة تزين جدار المطار ... رسوم تسجل
مراحل الطيران في مختلف عهوده .

ولبثنا ننتظر ، وامتد بنا الوقت ، ولكن ما حيلتنا ، والجيش عليه أن
يظل في الانتظار ، وأن يكون متأهباً مرهف السمع ، يرتقب صوت النفير !
وحانت ساعة الفرج ، وسمعنا مضخم الصوت يقول :

— القاصدون باريس يتقدمون !

فتجمع الشمل ، وانتظم الصف ، وخرجنا إلى ذلك المشى المظلل ، كأنه
عريش بستان ...

وما كدنا نبلغ أقصاه ، حتى لاح لنا « شمروخ » ...
وقفت أتأمله لحظة ...

أنت و « أبو الهول » صنوان ، يحمل كل منكما اسماً من مصر ...
ففيكما نفحة من الوطن ... كلاكما في وقفته المتطلعة شامخ مهيب ،
وكلاكما في مظهره الجميل سمح الحجا مقتر الثغر ... إنه لفأل طيب ،
فعلى بركة الله !

احتوانا صدر « شمروخ » والوقت ظهر ...

إنه كأخيه « أبى الهول » في وثارة مقاعده ، ونظام طاقاته ، وسائر
شبابته ...

لوح النور هو هو ، بوصى بشد النطاق ، ويحظر التدخين ...

وهذا الفتى الأمريكى وزميلته السمحة ، فى لبوسهما الرمادى الرسمى المهنـدم كأنهما طيفان من هولـيود !

وأقتل الباب ، ذلك الفاصل بين عالم الأرض والسماء ، بل إنه لنافـل يقرر مصاير الركب ، فكأن صريره إذ يوحد يقول :

ثمّة حقبة متميزة من حياتنا قد خفّت بخيرها وشرها ، وصارت ماضياً مطوياً ، وها هى ذى حقبة جديدة تبدأ ، ما برحت مجهولة لنا ، وإن كانت مسطورة فى لوح القدر المغيـب !

ورحت أتأمل تلك الفترة التى مضت من حياتى فى ذلك العالم الجديد ، وطاقفت بالرأس أفكار ...

يقولون إن الحياة ماض وحاضر ومستقبل ... ولكن فى هذا الرأى كثير من إلقاء الكلام على عواهنه دون دقة وتمحيص ...

ليت شعرى : أى شئ هو الحاضر ؟ أين هو ؟

ما الحاضر إلا وهم محصور لو حاولت قبضه لما تحصل فى يدك منه شئ ... إنه ليمربك خطفأ ، وينزلق عنك إنزلاق الزئبق الزجاج ...

فليس فى مقدورك أن تدعى الاستمتاع بشئ منه إلا أن توهم نفسك إيهاماً ...

إن خفقة القلب ، وفيها معنى الوجود ، وسر الحياة — لا تكاد تبدأ حتى يتلعبها الماضى من فوره ، فكانها قذيفة منطلقة يغيبها ذلك الفضاء العريض ... وإن الكلمة ، وهى ترجان النفس وتعبير الشعور ، لا تكاد تنفرج عنها الشفتان ، حتى يتلفها الماضى فيدونها فى سجله العتيد ...

ذلك الماضى تنين هائل يفر لك أفواهه يمنة ويسرة ، وتخدق بك مخالبه من كل جهة ، مرتصداً يقظان لكل إشارة أو عبارة ، ولكل حركة أو حس منهوماً صديان لا يشبع مهما يطعم ، ولا يروى مهما يعب !

إنه لا يفتأ يقطعك ويعتصرك حتى يحين وقت تفتى فى جوفه ، فتصبح تسيجاً فى جسمه ، ونقطة من دمه ، تصبح صفحة من الماضى !

وليت شعرى : أى شئ هو المستقبل ؟ أين هو ؟

سديم غامض ، مهما أنفذت فيه بصرك ، لم يستبين لك فيه قليل أو كثير ...

ما برح هذا السديم في طور التكوين لم يتخلق ، فهو في ذمة أقدار محبة
تصوغه وفق هواها . . .

ليس المستقبل إذن إلا خيالاً غامضاً جوهره الظنون !

الحياة ماضٍ وحده . . .

إنه الحقيقة الثابتة منقوشة في سجلك الصخري لا تبلى . . .

في استطاعتك أن تتحدث في هذه الحقيقة حديث خبرة وعلم ، وتصفها
وصف رؤية وتمعن ، ولا تملك أن تمحو منها مثقال ذرة ، وإن بذلت في ذلك
غاية الجهد . . .

ليس لك أن تستمتع بشئ سوى الماضى . . .

ليس الإنسان في الحق إلا حشد ذكريات وذكريات !

ظل « شمروخ » يطير ، وأنا مستغرق في تأمل ، تطوح بي الخواطر في
شتى الآفاق ، وقد ألقى النظرة بعد النظرة من الطاق ، أشهد قطع السحاب
تسبح في السماء ، تارة تلتحم وتربد منذرة بوابل هتان ، وطوراً تتشع لتأذن
للمشمس أن تبعث ابتسامتها تحيينا ، وتبث في نفوسنا الطمأنينة والرضا . . .
وفي الساعة الخامسة مساءً ، هبطنا مطار جندار . وظهرت السيارة الحافلة
قامتطينها نجوس بنا دروب تلك القرية الكئيبة المنعزلة ، هذه المستعمرة الجوية
التي اتخذت محطاً لرجال الطائرات ومثابة استجمام . . .

وزاد هذه القرية وحشة وكآبة أن السماء كانت غائمة توالى رذاذها . . .
وبلغت بنا السيارة مقصف المطار ، ذلك المبنى الذي يماثل بيت فلاح ثرى
من سادة الريف . . .

وبعد أن طعمنا تناهى إلينا أننا في المطار نبيت ، ولكن علينا أن نكون
على تمام أهبة الرحيل ، فقد يباغتنا أمر بالمضى إلى ركوب الطائرة !
وأقلتنا السيارة الحافلة إلى ما يسمونه هناك الفندق ، وما هو إلا ثكنة
وحق السماء ، لا تَجَسَّى ولا مغلاة !

في ذلك المكان حيننا حياة الجندي في شتى مظاهرها : حجر بلغ بها التواضع
حد الشطف ، وأسرّة عجاف لا يسترها إلا ما تمس إليه الحاجة من فرش
ساذجة ، وضجة ارتقاب وتوفز ، تنوهم في الفينة بعد الفينة أننا مزعجون
بطلب الرحيل !

صحوت في الخامسة صباحاً ، كأنما عز على نفسي أن يوقظها أمر مسيطر .
فاستيقظت هي ، تمثلاً بقول القائل :
« يبدى لا بيد عمرو ! »

لا جديد في شأن الرحيل . . . الجو عابس ، وبين السماء والأرض يريد
لا ينقطع من رذاذ ، فكأنه يحمل إلينا رسالة الانتظار !
عدنا إلى مبنى المقصف ، لا عمل لنا إلا أن نطعم ونستريح وننتظر . . .
من أسس الرحلة الجوية أن ننتظر ، وأن نروض أنفسنا دائماً على هذا
الانتظار !

أمضيت الوقت على تلك المقاعد الوثيرة ، أنقل بصرى في الحاضرين ،
وما فتئ الرذاذ ينقر زجاج النوافذ . . .
لكأننا نحن طلاب « شمروخ » في جزيرة موحشة ، قدفنا حطام سفينة
محطمة إلى الشاطئ ، فبقينا نرتقب النجدة !
وكنت كلما برمت بالانتظار مضيت أسائل ضباط المطار ومن إليهم من
الأعوان ، ولكن لا جديد !
ليس في جعاب المسئولين من الجواب إلا ابتسامة غامضة ، وإيماءة
خاطفة !

وأخذ الصحب يتجمعون للعب بالورق ، وانعقدت سحائب اللفائف ،
وطالعتنا الكؤوس والأقداح تروح ملأى وتعدو فارغة . . .
إني لأغبط هؤلاء اللاعبين ؛ فلقد اندمجوا فيما بين أيديهم ، فأنساهم كل
شئ . . . نظراتهم مشرعة إلى الورق ، كلماتهم عاجلة يتطارحونها تارة في
ضحك وتارة في عبوس ، حركاتهم آلية وهم يوزعون الورق في مهارة كهارة
الحواة والمهرجين . . . إني لأحسبهم قد سُحروا صوراً كتلك الصور الأنيقة
الملونة التي تحلى ورق اللعب ، صور الملوك عليهم تيجان مذهبة ، والصبايا
تزدان بالزهر الناضر . . .

ضجرت بهؤلاء اللاعبين في موقف جد . . . فهضت ألتفت حولي لأشغل
نفسي بشئ ، فالفيت تناراً من المجلات ، فأقبلت أقرأ : ثمة مقال تلوح طرافته ،
قصة صحفى أمريكي يصف ما شهد في زورة لإحدى المناطق الألمانية الخاضعة
للاحتلال الروسى . . .

إن الصحفي ليطنب في الإرشادة بما يلقي به الروسيّ ضيفه من كرم وحفاوة ،
إنه لكرم يذكركنا سماحة الشرق والعربي في كتب الأولين ، أولئك الروسيون
يقيمون مأدبة لذلك الصحفي الأمريكي ومن معه في التاسعة صباحاً ، مأدبة
تزخر باللحوم والألبان والأشربة ، فلما أكلوا حتى أفتحوا أخبرهم مضيفهم القائد
الروسي أن ليس هذا إلا تصبيحة وعجالة ، فأما الفطور التام فهو في
الحادية عشرة . . . في الحادية عشرة !

أمامك ساعتان أيتها المعدة لكي تهضمي ما ألقى إليك من لحم ولبن وخمر ،
وتشمري لما تفجؤك به المائدة الجديدة بعد . . .

وقد مضى اليوم سلسلة من المآدب موصولة الحلقات ، وكان مسك الختام
عشاء حافلا في الساعة الأولى بعد منتصف الليل !

أما ألوان الطعام فكثيرة ، لا ينتهي لصحافها عرض . . . وكانت معارك
الطعام تدور على نغمات الموسيقى ومطابخات الأحاديث !

أوربة اليوم بين منتصر ومنهزم . أما المنتصر فيقتضي يومه يفكر متى
يهضم ما أكل ليستزيد . وأما المهزم فيقتضي يومه يفكر متى يتبلغ بشئ يسكت
به سعار الجوع !

حقاً أن أوربة اليوم مجال لمجاعة شاملة . وأن هذه المجاعة لتمثل في نهج
المنتصر . . . كما تمثل في حرمان المهزوم !

كان طريفاً أن يجري الصحفي الأمريكي على أسلوب الأرقام والإحصاء في
التعقيب على تلك الضيافة ، وقد خرج من الحساب بأنه أنفق . . في المائة من
يومه آكلًا . و . ٣ في المائة نائماً ، و . ١ في المائة متنقلاً ، و . ٥ في المائة مقبلاً
على مهمته المجيدة التي رحل من أجلها في همة ونشاط !

وأنهى مضخم الصوت يقول :

— ركاب « شمروخ » يستعدون للسفر !

فألقيت بنظرة على الساعة في معصمي . فإذا بها قبيل الساعة مساء !
غيبنا جوف « شمروخ » واعتلى بنا صهوة الرياح يستقبل المحيط ، ويتأهب
لاجتيازه قُدماً لاريت ولا هدوء . . .

وكان الضباب ما برح مركوماً ، والرذاذ يداعب زجاج الطاقات ، ولكن
« شمروخ » مضى يشق ذلك الحجاب الثقيل المعتم ، ويسمو إلى آفاق الصفاء

والنور ، وإذا بنا نلمح تحتنا بساطاً ناصع البياض ، كأنه غوارب موج ، أو بطاح مترامية من جليد لا يدرك نهايتها الطرف ، وعلى حواشى السماء يزهو وشى أرجوانى من صبغة الشمس فى لبوس المغيب !

كان « شمروخ » رشيماً فى طيرانه ، فلبثنا نعبّر المحيط فى سكينة وأمان ... وتراخت الأعصاب بعد توتر ، فتهالكت على ذلك المقعد الطبع ، وقد أردته أن يكون فراشاً فكان ... وجذبت الدثار على ركبتيّ ، وأسلمت للنوم جفنيّ ، وسرعان ما استجاب لى السبات !

وفى منتصف الخامسة صباحاً صحوت من نومي ، فألفيت الطائرة على مقربة من مطار شانون موشكة على التصويب كان أول صنيع لنا فى مطار شانون أن نصلح من ساعاتنا ، فتقدمنا بها نحواً من ثلاث ساعات

أنت فى رحلات الجو كما تدين تدان ! هذه ساعات من حياتنا فخرها اليوم ، وما هى إلا تلك الساعات التى استزدناها يوم ذهابنا إلى العالم الجديد ! قضينا ساعة فى المطار ، تناولنا فيها طعام الإفطار ، وعدنا إلى الطائرة نستأنف الارتحال إلى باريس

وما هى إلا ثلاث ساعات حتى كنا فى مطار عاصمة الفرنسيين ها نحن أولاء نثوب إليك يا باريس بعد غيبة أربعة أشهر ، فكيف أنت ؟ وما حالك الآن ؟

لن تكونى لنا إلا محطة استبدال مطية بمطية ، فنصيبك منا نظرات التعجلين ومرور الكرام !

كنا نحسب أننا سنقضى فى باريس يوماً أو بعض يوم ، فإذا بها تأسرتنا عشرة أيام ثقّال !

إنى لأسائل نفسى الساعة :

كيف قضيت تلك الأيام ؟

لقد كانت مثار إرهاق وإجهاد ، لم نطعم فيها الراحة إلا غراراً ، جو أحمق ، كأن به جنة ، لا قرار له على حال ، فمرة هو قيظ متلهب ، وحيناً هو أهوية وأمطار !

وهذا الكد بين مكاتب العملة وشركات الأسفار . . .
 أعصاب متوترة ، ونفس ثائرة ، وحيرة في موعد الرحلة ووسيلة الانتقال . . .
 هل نساfer بالقطار أو بالطائرة أو بالسيارة أو مشياً على الأقدام ؟ يعلم الله !
 في تلك الأيام المضطربة التي عشناها كان لزاماً علينا أن نصطنع الحذر
 الشديد والتجمل الدائب . . .

وقد يغدو المرء على الرغم منه مخاتلاً كذوباً ، فأوضاع الحياة شمة لا تعين
 على حق وصدق وتصريح !

إن القيم الأخلاقية لتبدو لنا الآن غريبة الوجه ، لا تلائم ملابسات
 العيش وسوق الحياة . . .

هذه القيم تلين وتتلوى إزاء ما تقتضيه الحال الراهنة في ذلك العهد
 العجيب . . .

على أن القانون يتجنى على الناس فيريدهم على الخضوع لسلطانه ، وإلا
 وصمهم بوصمة المروق على الأوضاع . ولو أنصف القانون لتبين له من أضرار
 هؤلاء الخارجين عليه ما يدعوه إلى الرفق والإشفاق !

شد" ما يحلو لنا في فسحة الحياة وطمأنينة العيش أن نتلهى بالحديث عن
 المخطئين المتجاوزين الذين يتمدون حدود العرف والقانون والأوضاع ، وأن
 نتعوذ منهم كل التعوذ ، وأن نرمهم بمردول النعوت ، وما ينبغي لأحد منا أن
 بأذن نفسه بهذه الجعجعة والاستطالة ، حتى يرى نفسه قد باشر تلك التجربة ،
 وأحاطت به تلك الملابس ، لينظر : أمستطيع هو حقاً أن ينجو من سلطانها
 عليه ، فإن كتبت له النجاة . وتيسر له التماسك والتمتع ، كان في حل من أن
 يندد بمن شاء من صرعى الخطايا والذنوب !

تبدو لنا باريس بعد أربعة أشهر ، كما هي باريس التي مررنا بها من
 قبل ، إلا فيما ندر من الظواهر . . .

ولعل مؤتمر السلام الذي اختار مقرّه في باريس قد أعان على أن تظهر
 المدينة على نحو لا يخلو من بهاء !

فقد تكاثرت سيارات الأجرة ، وعمرت الأندية بالأجانب من أعضاء المؤتمر
 ومن إليهم من أعوان وصحفيين وزوار . . . فكنت تلمح في باريس أطيفاً من
 روائها في ماضيها البعيد !

وربما كان أوضح معالم باريس هو سوقها السوداء . . . ولكنها اسم على غير مسمى ؛ فقد احتلت كل مرافق الحياة ، وأصبحت هي السوق الحرة التى لا مناص منها لمن يشتري ويبيع !
هذه السوق السوداء تتغلغل فى كل شئ ، وتلشب أظفارها فى كل مكان ، حتى إنها لتسلل إلى مؤتمر السلام !

فى المجالس الرسمية سوق بيضاء تتناقل فيها الخطب والمشاورات وتتداول الآراء ، ولكن بخطا بطيئة لا تبلغ غاية ولا تصيب هدفاً . فالبضاعة فى تلك المجالس الرسمية قليلة تافهة ، والعملة نادرة ، ولكن خلف هذه السوق الحرة الجامدة سوقاً سوداء رائجة البضاعة ، متوافرة العملة ، تعقد فيها الصفقات الكبيرة من الاتفاقات والمحالفات والخطط والمكائد ، على حساب الشعوب التى أقيت إليها كؤوس من خمر المبادئ الرفيعة والمثل الانسانية تظل بها ساهية لاهية !

ويوماً وقع بصرنا على صديقنا الحوذى الخمور ، وهو على عرشه المتزلزل واربم الأنف ، فسألناه جولة فى غابة بولونيا . . .
إنه هو هو فى دكتاتوريته الحمقاء ، يفرض الأجرة كما يشاء . . .

وراحت المركبة تكرر بنا فى الطريق . . .
لم ينل منجل الحرب من غاية بولونيا إلا قليلاً قليلاً . . . ولكن شتان ما بين الغابة أمس واليوم ! . . . كأتى بها طريحة المرض ، مجهودة الأنفاس ، يعودها الناس جموعاً وفرادى . . . وإن نظرة واحدة إلى وجوههم وسماهم وهيئاتهم لتوحى إلينا بما يكابدونه من إقفار وإجذاب وعبوس . . .
إنه حقاً لعراكَ عنيف ذلك الذى يعتلج اليوم فى صدور أهل باريس . . .
إنها لحرب أخرى أشد من الحرب الماضية هولاً ، تشنها فرنسا على البؤس والفاقة والهزيمة !

ثم ابتسامات تتخايل على الوجوه ، ولكنها ابتسامات مجتلبة مزورة تشف عن هموم وحسرات !

وبدا صديقنا الحوذى الخمور يتحدث ، ويسترسل فى الحديث ، كأنه يناجى نفسه . . . وكنا على مقاعدنا وراءه نصفى . . .
كان يشكو ويتذمر ، ويتنحل المعاذير من دكتاتوريته فى الغلالة فى

الأجور، وكأنما يأخذ علينا استكثارنا لما فرض من أجر، على حين أننا لم نساومه في شيء، ولم نبد أقل اعتراض!

إنه ليدافع عن نفسه، معاتباً مرة ومغلظاً في القول أخرى . . .
 إن روح التمرد تشيع في نفسه، ولكن على أي شيء يتمرد؟ أمن أجلنا
 وقد أذعنا لمطلبه؟ إنه ليتسخط على الزمن، على ذلك الغلاء المتماهى . . .
 لقد استرسل في الكلام جريئاً محمداً للهجة . . . إنه لقول جرى
 وإيم الله!

حسب ذلك المأفون أن عهد التحرر من ربقة الألمان راجع إليه بفيض من
 الخير غزير، فروعه ألا يتحقق من ذلك شيء . . .
 إنه لا يتورع عن أن يرحم على ذلك العهد السابق البغيض . . . كان
 في ذلك العهد يملاً كرشه، ويحصل على النيذ بثمان قليل، فيطعم هنيئاً .
 ويشرب مريضاً!

بهذا القول كان يثرثر، والعهدة عليه، أخزاه الله!
 لقد كانت عربة الأجرة هي الوسيلة الأولى للانتقال في باريس عصر
 الاحتلال، وكان سائقها «سيد الموقف» غير منازع، لم يكن أمامه منافس
 في الميدان، فراح يصول ويحول وقد خلا له الجو، فكيف لا يتغنى بمغنام
 تلك الأيام، وكيف لا يتبعها واسع الرحمات!
 لم يكن الخوذي نفسه هو الذي يتكلم ويتندم، وإنما كان بطنه الخاوي
 هو الذي يعوى!

انسرحت أفكر فيما يقول الرجل . . .
 أهكذا تذوب الوطنية في أتون الأحشاء المتوقد؟
 أهكذا تتحلل المثل العالية في قدر الجوع هذا التحلل الزرى؟
 ليس البشر جميعاً قديسين وأصحاب مثل رفيعة؟ فان الدنيا تموج بتلك
 الحشرات التي تعيش لتأكل حتى تنبج البطون!
 ومهما يكن من أمر، ففي حديث هذا الرجل معنى يجب ألا يكون نصيبه
 من الغفلة أو الإغفال . . .

ليس لنا أن نزدري فلسفة البطون . . . إن القمة لها مكانتها المروقة في
 تاريخ البشرية، وإنها لن تفقد هذه المكانة على مر الأحزاب والدهور!

إني لأرى فلسفة البطون تتدسس إلى كل شيء ، وإني لأراها تدفع بالأفراد كما تدفع بالشعوب !

ليس الجوع أو خوف الجوع وما يتفرع عنه من التشهى والنهم والجشع إلا المحرك الأول في قيادة الأمم وسياسة الدول ، وقد تحولت تلك الكلمات في معجم السياسة إلى كلمات « المجال الحيوى » و « النافذ على البحار الدافئة » و « المواقع الاستراتيجية » و « حرية مسالك المياه » وما إليها . . . وتفسير هذه الكلمات الجديدة في معجم الحقائق المستورة هو معدة طاوية خاوية تبحث عما يملؤها ، فإن استلأت اشتد كلبها وتطلبت المزيد ، وكأنما تختشى أن يعصها سعار الجوع من بعد ، فهي تتهاذى في الأكل لا فتور ولا وناء !

وقد أدرك بعض عقلاء السياسة أثر البطن في حكم الشعوب ، فاستبدلوا بالحكمة التليدة : « جوع كلبك يتبعك » تلك الحكمة الجديدة « أشبع كلبك يحبك ! »

فالحاكم الحصيف الذى يريد أن يسيطر وأن يتأمر ويأمن الخروج والعصيان ، يتوخى دائماً إشباع البطون ؛ فالتخمة تورث الكسل والفتور والتبلد ، وليس بعد امتلاء البطون إلا الجمود والخمود ، فيخبو الذكاء ، وتتعطل الفطنة ، وتستحب الراحة والدعة والاستسلام . . .

لا طاقة لبطين على ثورة ، ولا صيحة لمتخم وخيم !

تركنا باريس لحوزيها يوازن بين الحرية والرغيف . . . !

وأقلتنا الطائرة إلى جنيف بعد طيران ساعة ونصف ساعة . . .

رحلة كان مقدراً لنا أن يقطعها بنا القطار فى عشر ساعات ، ولم يكن لنا بدء من أن نمضيها وقوفاً فى محرات القطار مرهقين بالزحام بين كومات من الأمتعة والأناسى ، لا نكاد نظفر بكسرة من خبز ، أو جرعة من ماء !
بورك فيك يا لسور الجوّ من خلق الإنسان ، وإن كانت عثراك لا تقال !